أسطورة حديثة

قلب الشاعر

للأديب حسين شوقي

لما فرغ الآلهة من خلق العالم السفلي ، دعوا إلى حضرتهم الشاعر الذي كان قد سئم الأقامة بجوارهم وقالوا له : « إن الحياة هنا كما ترى عابسة لا تسرك أيها الشاعر ، إنك في حاجة إلى التسلية . . إذهب إلى العالم السفلي الذي فرغنا من خلقه عساك تسر بما تشاهد هنالك من مناظر وملاه ، ولسوف تدهشك أخلاق الذين أسكناهم إياه . . إنما يجب أن نحذرك تعاطي مخدر يتناوله بنو البشر يدعى الحب ، لأن هذا المخدر قتال وإن كان لذيذاً ، وبخاصة لقلب شاعر رقيق . . »

انصرف الشاعر من حضرة الآلهة بعد أن سجد لهم شكراً على هذا العطف ، ثم تناول مظلة ففتحها ثم هوى بها في الفضاء آخذاً طريقه إلى الأرض . . ما كاد شاعرنا يهبط حتى عرف أن البشر مقسمون الى ثلاث طبقات : العظماء ، والأوساط ، والفقراء . . قصد الشاعر طبقة العظماء على ظن أن هذه الطبقة تجمع ولا شك خلاصة الناس وأرقاهم . . وهنالك وجد الشاعر قصوراً فخمة حليت جدرانها بالذهب وكسيت بالحرير ، ولكن اشتدت دهشته حينما وجد حجرات هذه القصور قد انقلبت الى معامل للدسائس يديرها الحقد ، والطمع ، والغرور . . كما أنه شاهد في هذه القصور أناساً تبهر ثيابهم الأنظار بوشيها الفاخر العجيب ، ولكن قلوبهم ويا للأسف ! صيغت من النحاس . . انصرف الشاعر عن هؤلاء العظماء وهو حانق لما شاهد فيهم من أخلاق لا تتفق ومثله العليا . . ثم قصد الطبقة الوسطى . . فوجد قوماً يجدون ويكدون في جمع المال ، فاذا حصلوا عليه أخذوا يحاكون طبقة العظماء محاكاة القرد للانسان . . عاف الشاعر هذا المنظر أيضاً فانصرف الى عالم الفقراء عساه يجد في النهاية مثله العليا لدى هذه الطبقة القانعة المتواضعة . . فوجد الشاعر قلوباً تحاكي الماس صفاء ، ولكن وجد بجانبها ويا للأسف ! بؤساً وانحطاطاً وأموراً لا تتفق وروح الشاعر الأرستقراطية . .

ضاق الشاعر بالبشر ذرعاً فقصد الخلاء ، فرأى فيه أودية ناضرة ، وأنهاراً زاخرة ، وزهوراً بهيجة الألوان ، وبلابل تكاد تنفجر حناجرها الصغيرة من كثرة الألحان . . حقاً ، كلها مناظر جميلة ، ولكن أين هذه الطبيعة المتواضعة من حدائق الآلهة الغناء حيث كان مباحاً للشاعر النزهة والتروض في أي وقت شاء ؟ . .

يئس الشاعر من العالم السفلي وكاد يعود الى السماء ، إلا أنه فكر في اللحظة الأخيرة في تناول مخدر الحب الذي حذرته منه الآلهة ، لأن النفس تواقة بطبيعتها الى استيعاب المحظور وكشف المستور

كان الشاعر كلما قصد صيدلية يسألها هذا المخدر شيمه أصحابها إما بالسخرية ، وذلك اذا ظنوه مجنوناً ، وإما بالغضب ، وذلك اذا ظنوه عابثاً . . . ولما يئس من الحصول عليه ، رجع الى الخلاء فجلس هناك فوق ربوة في مكان تظلله شجرة سفصاف متهدلة الأغصان ، وهو مطرق الرأس ، فأطل عليه حينئذ رزور فضولي من فوق غصن وقال : فيم تفكر أيها الشاعر الصديق ؟ فقص عليه الشاعر قصته لعل هذا العصفور يهديه الى ما يريد ، فهو دائم الحركة والتنقل في حدائق البشر وحقولهم ، فلا شك أنه يعرف عنهم أشياء كثيرة . . .

أغرب العصفور في الضحك من قول الشاعر حتى كاد يسقط من فوق غصنه وقال : تبحث عن الحب ؟ هاكه ! ثم أشار الى مكان آخر من الربوة ظلله كذلك الشجر الكثيف ، فنظر الشاعر حيث أشار فوجد فتاة آية في الحسن ، تجلس وحدها تغزل الصوف . . أخذ الشاعر لجمالها الرائع وأدرك معنى الحب من نفسه حينما حل هذا الأكسير العجيب في قلبه . .

ثم أخذ شاعرنا يتدفق في إنشاد الشعر فعجب من السهولة التي صار ينشده بها ، ومن أن هذا الشعر أصبح أرق وأعذب من قبل . . ودهش من أمر هؤلاء الآلهة الذين يحرمون مثل هذا المخدر العجيب . .

ولما كانت الفتاة تختلف كل يوم الى هذا المكان تقضي فيه ساعة أو ساعتين في غزل الصوف كان الشاعر يأتي لينظر اليها متأملاً ملامح وجهها الفتانة في خشوع وإجلال ، فاذا انصرفت أخذ ينشد هذه المحاسن في صوت جميل أيضاً ، لأن